ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) عروضيا

د. محمد مولود خلف المشهداني

كلية الآداب – جامعة بغداد

كتاب العقد الفريد موسوعة أدبية يرجع اليها الأديب والمؤرخ واللغوي والنحوي والعروضي وصاحب الاخبار والقصص فيجد طلبه وغرضه في معرفة كثير من النوادر وأخبار الشعراء والكتاب وأهل الغناء وأرباب السياسة والاجتماع وغيرهم[١] ، اضافة الى نصوص أدبية صاغها ابن عبد ربه بأسلوب أدبي متميز ظهرت فيه شخصيته الأدبية .

ومما لا شك فيه أن من فضائل هذا الكتاب تلك الجوهرة الثانية المسماة "في أعاريض الشعر وعلل القوافي"[٢] والتي يجدر بالباحث في أدب أهل الأندلس الوقوف عليها والنظر فيها من أجل معرفة جهد الأديب الكبير أحمد بن عبد ربه الأندلسي وأسهامه القيّم في علم بالغ الضرورة لدارسي الشعر العربي وتأريخه الا وهو علم العروض .

التعريف بأبن عبد ربه[٣] :

أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي الأندلسي ، ولد في مدينة قرطبة في العاشر من رمضان سنة ستٍ وأربعين ومائتين للهجرة وبها نشأ وترعرع .

مال ابن عبد ربه الى الأدب من نثر ونظم في سنٍ مبكرة فبرع فيهما وأتقن الفقه والتاريخ ودرس علوم العصر من نحو وعروض وشريعة[٤] .

أخذ العلم عن شيوخ مصره وأشهرهم ثلاثة أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القطربي المتوفى سنة ٢٧٦ هـ[٥] ، وأبو عبد الله محمد بن وضاح المتوفى سنة ٢٨٦هـ[٦] ، وأبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني المتوفى سنة ٢٨٦هـ[٧]

وكان لهؤلاء الشيوخ فضل على الثقافة الأندلسية في الفقه والحديث والأدب واللغة والسير والأخبار .

ساهم ابن عبد ربه في الحياة الثقافية بالأندلس وترك بصماته عليها ، فقد كان متعدد المواهب ، اليه يعود الفضل في إشاعة الرواية المشرقية التي ضمنها كتابه الشهير "العقد" .

جلس للتعليم فتحلّق حوله التلاميذ يأخذون عنه العلوم والمعارف وكان في جملتهم الخليفة عبد الرحمن الناصر يوم أن كان صبياً[٨] .

قال أبو منصور الثعالبي "وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة وعليه رونق البلاغة والطلاوة"[٩] .

ولاءم ابن عبد ربه بين حبه للغناء وبين ما ينظم من أشعار تصلح أن تكون مادة للغناء في رقة معانيها وعذوبة ألفاظها فشاعت سمة الغنائية في شعره وتمثلت "في غلبة الجانب الموسيقي وأتضاح العنصر العاطفي وشيوع الرقة والسلاسة وخاصة ما كان متصلاً بموضوع غنائي بطبعه"[١٠] ، مدفوعاً بإحساس مرهف بالألحان العذبة ومتأثراً بالأنغام الجميلة التي كانت تصدح بها الأصوات الساحرة في مجالس الغناء والطرب فتأسره وتأخذ عليه لبّه ، فقد ذكر الحميدي أن ابن عبد ربه . وقف تحت روشن لبعض ، الرُؤساء وقد سمع غناء حسناً ، فرش بماء ولم يعرف من هو ، فمال الى مسجد قريب من المكان وأستدعى بعض ألواح الصبيان فكتب :

يا مَنْ نضنُ بصوْت الطائر الغرد	ما كنتُ أحسب هذا النُحْلَ في أحدِ
لو أنّ أسماع أهل الأرض قاطبةً	أصْغت الى الصوت لم ينقص ولم يزدِ
فلا تضن على سَمْعي تقلّدُهُ	صوتاً يجول مجالَ الرُوح في الجسدِ
لو كان زرياب حَيّاً ثم أسمعه	لذاب من حَسدٍ أو مات من كمدِ[١١]

وذكر الحميدي ما نصه : "شعره كثيرٌ مجموع رأيت منه نيفاً وعشرين جزءاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وفي بعضها بخطه ... وكان لأبي عمر بالعلم جلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانته وصيانته"[١٢] .

ألف أحمد بن عبد ربه كتابه الشهير "العقد" فجاء "كافياً شافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وحلاه بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها وقرن بها غرائب من شعره"[١٣] .

لقد أستوعبت أبواب الكتاب جوانب الحياة الأدبية والفكرية حتى عصر الكاتب ففيه من الأدب الرفيع والشعر البديع لأكثر من مئتي شاعر وما يزيد على عشرة آلاف بيت من الشعر ، ما يغطي مدة واسعة من تاريخ الأدب العربي ، فجاء العقد مثقف القناة مرهف الشباة ، تقصر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر منه في كل باب"[١٤] .

ومع أنه أصيب بالفالج في آخر حياته ، إلا أنه ظل غزير الأنتاج ينظم جيد الشعر ورائع النثر على الرغم من تلك العلة وفي ذلك يقول[١٥] :

ولست أبالي عن تباريح علتي إذا كان عقلي باقياً ولساني

وكانت وفاته في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة ودفن بقرطبة[١٦] .

عناية ابن عبد ربه بعلم العروض :

كان ابن عبد ربه ممن عني بعلم العروض ، بل ربما كان من أوائل المعنيين به في الأندلس عناية جعلته يفرد له جانباً كبيراً من كتابه الشهير "العقد الفريد" ويختصه ببابٍ كبير من أبوابه ، وربما وضع هذا الباب في بداية الأمر مفرداً بكتاب مع الأرجوزة العروضية وأهداه الى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٣٠٠هـ ، وهو ما يشير اليه قوله في آخر الأرجوزة[١٧] :

ثبّت لعبد الله حسن نيته وأعطفه بالفضل على رعيته

ثم لما شرع ابن عبد ربه بتأليف كتاب العقد ، وأراد له أن يكون جامعاً ، ضم اليه كتاب العروض أو ربما جاء بعد ذلك من جمعهما في كتاب واحد . ولعل ما جاء في فهرسة ابن خير الأشبيلي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ يؤيد ما تذهب اليه ، فقد ذكر المصنف كتاب العقد لأبن عبد ربه ثم ذكر كتاباً آخر سماه كتاب العروض وقال : "حدثني فيهما الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن أبن

معمر"[١٨] ، وبالإضافة الى ما مر فإن السبب في عناية ابن عبد ربه بالعروض وإختصاره بالأرجوزة ، انه أراد أن يبسط الأوزان الشعرية ويجعل منها سهلة ملائمة لطبيعة فن الموشح ، وأن يستخرج الأوزان المهملة التي لم تقل عليها العرب[١٩] من الدوائر العروضية الخمس فيلائم بينها وبين الألحان الموسيقية المناسبة لفن الغناء ، لكي يلي الحاجة الى أوزان مناسبة تصلح للموشحات "إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب"[٢٠] ، وإذا صحّ ما ذهب اليه أبن شاكر الكتبي من "ان أبن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات"[٢١] . فإن محاولاته لإختراع هذا الفن قد إرتبطت بسعيه لإيجاد اوزان تصلح لغناء تلك الموشحات وإختراع الألحان المطلوبة لأدائها بأصوات عذبة شجية .

ولقد ذكر الدكتور إحسان عباس في سبب نشأة الموشح ما نصه : "وأما العامل الثاني – وبه تصبح العلل في نشأة الموشح ثلاثة – فهو التفنن العروضي ، ويقترن هذا التفنن بذلك الفتح المبكر الذي أوجده ابن عبد ربه في البيئ الأندلسية برسم الدوائر العروضية وأستخراج فروع الوزن الواحد منها في كتاب العقد ، وأنا أعتقد ان هذا النوع أصبح ألهية المثقفين بالثقافة الأدبية يومئذ وأصبح المتأدبون يمتحنون مقدمتهم ببناء الأشطار على غير ما ألف وشاع من أوزان"[٢٢].

فهل كان هدف ابن عبد ربه الوصول الى تلك الأعاريض والأوزان التي لم تقل عليها العرب ؟ ربما كان ذلك هدفه وهو ما يوحي به قوله عندما تحدث عن أرجوزته العروضية : "وذكرنا فيها كل الدوائر الخمس وما ينفكُ في كل دائرة من عدد الشطور التي قالت عليها العرب ، والتي لم تقل عليها"[٢٣] .

وبناءاً على ما تقدم نعلم كم لكتاب العروض مشفوعاً بالأرجوزة من أهمية بالغة لدراسة علم العروض عند الأندلسيين ، بل لمعرفة أولية هذا العلم لديهم .

على أن من الواضح لمن يقرأ ما جاء في العقد من العروض ، التزام ابن عبد ربه بتلك الأسس التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي لعلم العروض

وتشكلت منها مدرسته العروضية ، لأن ما جاء به الخليل محاولة عظيمة رائدة لتقعيد العروض وجعله علماً متميزاً .

ومع ذلك فإن ابن عبد ربه وجد من الملائم أن يراعي البيئة الثقافية الأندلسية وينسجم مع الذوق الأدبي الرفيع الذي تميز به الأندلسيون .

لقد بدأ كلامه عن العروض بإمور سهلة ، لكن لها من الأهمية في فهم هذا العلم ما يستوجب التقديم بها ، فتحدث عن الساكن والمتحرك ، وهو ما تقوم عليه التفاعيل العروضية ، فالكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحركاً"[٢٤] .

ثم تناول موضوع الكتابة العروضية وبيّن "أن كل ألف خفيفة أو ألف ولام خفيفتين لا يظهران على اللسان ويثبتان في الكتابة فإنهما يسقطان في العروض وفي تقطيع الشعر نحو ألف : "قال ابنك" أو ألف ولام نحو : "قال الرجل" وإنما يُعَدّ في العروض ما ظهر على اللسان .

وأعلم أن كل حرف مشدّد فإنه يعد في العروض حرفين أولهما ساكن والثاني متحرك نحو ميم "محمّد" ولام "سلاّم" . وأعلم أن التنوين كله يعد في العروض نوناً ساكنة ليست من أصل الكلمة"[٢٥] ، وفي هذا تبسيط وتسهيل وتيسير عمد إليه ابن عبد ربه كي يستطيع طالب علم العروض بعد ذلك أن يكتشف الجانب الصوتي في الكلمات وهو ما توفره له هذه الكتابة العروضية .

الأسباب والأوتاد :

ذكر أبن عبد ربه ان مدار الشعر وفواصل العروض تكون على ثمانية أجزاء وقصد بذلك التفعيلات مخالفاً آراء أصحاب المدرسة الخليلية في العروض ممن قسم التفعيلات على قسمين خماسي وآخر سباعي مسهلاً بذلك الأمر على الطلبة في بعض التفريعات الجانبية وما يحصل في التفعيلات من تغيير بسبب الزحافات والعلل ، وسمى ابن عبد ربه التفعيلات بالأجزاء وبيّن أن كل تفعيلة إنما تتألف من أسباب وأوتاد ، وأهمل الفواصل وما ينتج عنها من مقاطع صوتية وأكتشف ان هذه المقاطع في التفعيلات ليست إلا إجتماع لأسباب وأوتاد فالفاصلة

الصغرى ما هي إلا أجتماع سبب ثقيل وآخر خفيف ، وأما الفاصلة الكبرى فإجتماع سبب ثقيل مع وتد مجموع .

وذكر أن السبب سببان : خفيف وثقيل ، فالسبب الخفيف حرفان : متحرك وساكن ، مثل : "من" و "عن" ، وما أشبههما . والسبب الثقيل ، حرفان متحركان ، مثل : "بك" و "لك" ، وما أشبههما .

والوتد وتدان : مفروق ومجموع . فالوتد المجموع ثلاثة أحرف : متحركان وساكن مثل : "على" و "إلى" وما أشبههما . والوتد المفروق ثلاثة أحرف: ساكن بين متحركين ، مثل "أين" و "كيف" ، وما أشبههما .

وإنما قيل للسبب سبب ؛ لأنه يضطرب فيثبت مرة ويسقط أخرى . وإنما قيل للوتد وتد ، لأنه يثبت فلا يزول[٢٦] .

الزحاف :

وتحدث ابن عبد ربه عن الزحاف فذكر أنه زحافات ، زحاف يسقط ثاني السبب الخفيف ، وزحافٌ يسكن ثاني السبب الثقيل ، وربما أسقطه ، وبيّن أن الزحاف يأتي في الأسباب دون الأوتاد ويدخل على التفعيلات في الحرف الثاني والرابع والخامس والسابع[٢٧] .

ولمعرفة موضع الزحاف من التفعيلة علينا أن نرى أن كان الوتد في أول التفعيلة فإنما يزحف الحرف الخامس والسابع منها ، وأن كان الوتد في آخر التفعيلة فإنما يزحف الحرف الثاني والرابع منها .

ثم ذكر أسماء الزحاف وعرّف بها وهو ما أختصره في أرجوزته العروضية أيضاً التي سنذكرها في بحثنا هذا .

واللافت للنظر ان هذه التعريفات جاءت جامعةً مانعة لها فائدة كبيرة في معرفة مصطلحات علم العروض ، وبخاصة للمبتدئين والناشئين ، ممن لا يعرفون أسرار العروض .

علل الأعاريض والضروب :

وفي حديثه عن علل الأعاريض والضروب ، وافق ابن عبد ربه الخليل وأصحابه ، وأورد ما يصيب تلك الأعاريض من العلل ، وذكر أقسام العلل وبين أنها :

أولاً – علل النقص :

وهي أثنتا عشرة علة "المحذوف" هو ما ذهب من آخر الجزء بسبب خفيف. والمقطوف : هو ما ذهب من آخر الجزء سبب خفيف وسكن آخر ما بقي. والمقصور : ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الجزء الذي في آخره سبب . والمقطوع : ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الجزء الذي في آخره وتد . والأبتر ، ما حُذف ثم قُطع ، فكان "فاعل" من "فاعلاتن" و "فع" من "فعولن" . والأحذ : ما ذهب من آخر الجزء وتد مجموع . والأصلم : ما ذهب من آخر الجزء وتد مفروق . والموقوف : ما سكن سابعه المتحرك . والمكسوف : ما ذهب سابعه المتحرك"[٢٨] .

بيد أن ابن عبد ربه عدّ النقص الواقع في البيت من العلل ، فأضاف الى علل النقص ، البيت المجزوء ، وهو "ما ذهب من أخر الصدر جزء ، ومن آخر العجز جزء . والمشطور : ما ذهب شطره . والمنهوك : ما ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزآن"[٢٩] .

وبذلك خالف أصحاب مدرسة الخليل العروضية ، فإن ما عدّهُ علةً ، داخلٌ عندهم في تمييز البيت عن غيره من حيث تمام أجزائه أو نقصها[٣٠] .

ثانياً – علل الزيادة وهي " ثلاثة أشياء" :

المُذال : وهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن ، مما يكون في آخره وتد ؛ والمُسبّغ : ما زاد على أعتداله حرف ساكن ، مما يكون في آخره سبب ؛ والمُرفَّل : ما زاد على أعتداله حرفان : متحرك وساكن ، مما يكون في آخره وتد"[٣١].

ثم أستمر ابن عبد ربه في مخالفته للخليل وأصحابه فذكر "أن كل جزء من أجزاء العروض يكون مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة ، فهو المعتل . وما كان معتلاً فإنما هو أربعة أشياء : أبتداء ، وفصل ، وغاية ، وأعتماد . هذا قول الخليل . وأنا أقول : إنّ المعتل كله ثلاثة أشياء : أبتداء ، وفصل ، وغاية : وإن الاعتماد ليس علة ؛ لأنه غير مخالف لأجزاء الحشو ، إذ جاز فيه القبض والسلامة ، ولذلك يجوز في أجزاء الحشو كلها ، وإنما خالفها في الحسن والقبح ، وليس اختلاف الحسن والقبح علّة"[٣٢] .

فالأعتماد عند ابن عبد ربه ليس علة إنما هو مخالفة حُسن وقبح وغير داخل في شروط العلة ، لذلك ردّ على الخليل فقال : "وإنما زعم الخليل أن المُعتل ما كان مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة ، ولم يقل بُحسن أو قبح . ألا ترى أن "القبض" في "مفاعلين" في "الطويل" حسن ، و "الكفّ" فيه قبيح . و "القبض" في "مفاعلين" في الهزج" قبيح ، و "الكف" فيه حسن و "الاعتماد" في "المتقارب" على ضد ما هو في "الطويل" السالم فيه حسن ، و "القبض" فيه قبيح[٣٣] .

الخرم :

على الرغم من أن الخليل قد أنكر الخرم لقلته ، ولم يجزه[٣٤] ، أشار اليه ابن عبد ربه وذكر أنه يدخل في كلّ تفعيلة أولها وتد وذلك في "فعولن مفاعلتن مفاعيلن" .

والخرم عنده سقوط حركة من أول التفعيلة في أول بيت "فلا يدخل في السبب لأنك لو أسقطت من السبب حركة بقي ساكنٌ ولا يُبدأ بساكن أبداً"[٣٥] .

وللخرم اسماء تختلف حسب التفعيلة وأختلافها من حيث سلامتها وزحافها ونوع هذا الزحاف ، ذكرها ابن عبد ربه وبين ان ما دخله الخرم قيل له أخرم وما لم يدخله فهو الوقور[٣٦].

الأرجوزة العروضية :

ولما أتم ابن عبد ربه شرح علم العروض وبين جوانبه ، نظم ذلك كله في أرجوزة لعلها من أقدم الأراجيز العروضية إن لم نقل انها أول أرجوزة عروضية

أندلسية يعود تاريخها إتمامها الى أواخر عصر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٣٠٠ هـ ، الذي أهديت الأرجوزة اليه كما ذكرنا ذلك سابقاً .

وربما ارتبط نظم هذه الأرجوزة بممارسة ابن عبد ربه التعليم ، فأراد أن يسهل على المتعلمين حفظ العروض وما يتعلق به ، والى ذلك أشار بقوله : "وقد نظمت جميع ما ذكرناه من هذه الأبواب في أرجوزة ليسهل حفظها على المتعلم ، إذ كان حفظ المنظوم أسهل من حفظ المنثور"[٣٧] .

لقد أراد ابن عبد ربه أن يوفر على تلامذته عناء البحث ، وأن يضع بين أيديهم علم العروض مختصراً فنظم أرجوزته العروضية ، والتي ضمت أبواب العروض المعروفة .

تقع الأرجوزة العروضية في مئة واثنين وتسعين بيتاً ، وهي من الرجز المزدوج أو المزاوج ، إذ أستقل فيها شطرا كل بيت بقافية واحدة .

جاءت أرجوزة العروض ضمن كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي[٣٨] قال عنها : "جمعت فيها كل ما يدخل العروض ويجوز في حشو الشعر من الزحاف وبيّنت الأسباب والأوتاد والتعاقب والتراقب والخروم والزيادة على الأجزاء ، وفك الدوائر في هذا الجزء"[٣٩] .

وقدم لأرجوزته بأربعة بيتاً بدأها بقوله[٤٠] :

باللـه نبدا وبه التمـامُ	وبأسمه يُفتتحُ الكـلامُ
يا طالبَ العلمِ هو المنهاجَ	قد كثُرت من دونه الفجاجُ

ومنها قوله :

فداوِ بالإعراب والعَروضِ	داءك في الإملال والقَريضِ
كلاهما طبٌ لداء الشعر	واللّفظ من لَحن به وكسْرِ
ما فلْسفَ النّيطس جالنيوسُ	وصاحبُ القانون بطلْيموس
ولا الذي يدعونه بهرْمس	و صاحب الأركند والإقليدس
فلسفة الخليل في العروض	وفي صحيح الشّعر والمريضِ
وقد نظرتُ فيه فأختصرتُ	إلى نظام منه قد أحكمتُ
ملخصٍ مختصر بديعِ	والبعضُ قد يكفى عن الجميعِ

ثم أختصر فرش كتاب العروض بخمسة أبيات بين فيها ما ينبغي لصاحب العروض أن يبتدئ به ، من معرفة الساكن والمتحرك ، فقال[٤١] :

أوله والله أستعينُ ... أن يُعرف التحريكُ والسُّكُونُ
من كل ما يبدو على اللسان ... لا كل ما تخطه اليدانِ

وبعد ذلك باب الأسباب والأوتاد وهو في عشرة أبيات :

منها قوله[٤٢] :

فالسببُ الخفيف إذ يُعدّ ... مُحرك وساكن لا يَعْدو
والسبب الثقيل في التبيين ... حركتان غير ذي تنوين
والوتد المفروق والمجموعُ ... كلاهما في حشوه ممنوعُ

ثم عرف في خمسة أبيات بالتفعيلات المعروفة وسماها الفواصل وهي ثمانية : فاعلن ، فعولن ، مستفلعن ، فاعلاتن ، مفاعيلن ، مفاعلتن ، متفاعلن ، مفعولات .

ثم عرج على ذكر باب الزحاف في تسعة أبيات ، فقال[٤٣] :

فكل جزءٍ زال منه الثاني ... من كُل ما يبدو على اللِّسان
وكان حرفاً شأنه السكونُ ... فإنه عندي أسمه مجنونُ
وإن وجدت الثاني المنقوصا ... محركا سميته الموقوصَا
وإن يكن محركا فسكِّنا ... فذلك المضمر حقّاً بيِّنَا
والرابع الساكن إذ يزول ... فذلك المطويُّ لا يحولُ
وإن يزل خامسه المسكَّن ... فذلك المقبوض فهو يحسنُ
وإن يكن هذا الذي يزولُ ... مُحركاً فإنه المفعولُ
وإن يكن محركاً سكّنتهُ ... فسمّه المعصوب إن سميتهُ
وإن أزلت سابع الحروف ... سميته إذ ذاك بالمكفوفِ

ثم ذكر باب الزحاف الذي يكون في موضعين من الجزء في أحد عشر بيتاً. فقال[٤٤] :

فكل ما سُكِّن منه الثاني ... وأسقط الرّابع في اللّسانِ
فذلك المخزول وهو يقبُحُ ... فحيثما كان فليس يَصلُحُ
وإن يزل رابعه والثاني ... ذاك وذا في الجزء ساكنانِ
فإنه عندي أسمهُ المخبولُ ... يقصّر الجزء الذي يطولُ
وكل جزء في الكتاب يدركُ ... يسكن فيه الخامس المحرّكُ
وأُسقط السابع وهو يسكن ... فذلك المنقوص ليس يحْسُنُ
وسابع الجزء وثامنه إذا ... كان يُعد ساكناً ذاك وذا
فأُسقطا بأقبح الزّحافِ ... مسمى مشكولاً بلا اختلافِ

أما باب (العلل) فقد اختصره في أثنى عشر بيتاً منها قوله[٤٥] :

والعللُ التي تجوز أجمعُ ... وليس في الحشو لهنّ موضعُ
ثلاثة تدعى بالأبتداءِ ... والفصل والغاية في الأجزاء
والاعتماد خارجٌ عن شكلها ... وفعلُه مخالفٌ لفعلها
لأنهم قد تركوا التزامه ... وجاز فيه القبضُ والسّلامة
ومثل ذاك جائز في الحشو ... فنحو هذا غير ذاك النّحو
وكل معتلٍّ فغيرُ جائز ... في الحشو والقصيد والأراجزِ

وجعل باب الخرم في ستة وعشرين بيتاً ، وبين أن الخرم لا يدخل إلا في كل جزء أوله وتد ، وذلك ثلاثة أجزاء : فعولن ، مفاعلتن ، مفاعيلن . وهو ما يدخل في أبحر الطويل والوافر والهزج والمضارع والمتقارب ، فقال[٤٦] :

نقصان حرف من أوائل العددْ ... في كل ما شطر يُفكّ من وتدْ
خمسة أشطار من الشطور ... يخرم منها أول الصُّدور
منها الطويل أول الدوائر ... وأطول البناء عند الشاعر
يدخله الخرم فيدعى أثلما ... فإن تلاه القبض سمّي أثرما
والوافر الذي مدار الثانية ... عليه قد تعيه أُذن واعيه
يدخل الخرمُ في الابتداءِ ... في أول الجزء من الأجزاءِ

ثم قال :

والهزجَ الذي هو السوارُ عليــه للثالثة المــدارُ
يدخله الخرم فيدعى أخرما وهو قبيح فأعلمنّ وافهما

ومنها :

هذا وفي الرابعة المضــارعُ يدخل فيه الخرم لا يُدافــعُ
والمتقارب الذي في الآخــر تحلو به خامسةُ الدوائــر
يدخله ما يدخل الطويــلا من خرمه وليس مستحيلاً

ثم تناول باب علل الأعاريض والضروب ، فجعله في ستة عشــر بيتــاً ، اختصر فيها ما يقع في الأعارض من علل منها قوله[٤٧] :

منها الذي يعرف بالمحذوف وهو سقوط السبب الخفيف
في آخر الجزء الذي في الضرب أو في العروض غير قول الكذب

وجاء باب التعاقب والتراقب في سبعة عشر بيتاً وذكر انهما لا يكونان مــن جميع العروض إلا في أربعة أشطار ، هي المديد والرمل والخفيــف والمجتــث ، فقال[٤٨] :

وبعــد ذا تعاقب الجزأيــن في السَّببين المتقابليــنِ
لا يسقطان جُملــةً في الشعر فإنّ ذاك من أشدّ الكسرِ
ويثبتــان أيّمــا ثبــاتِ وذاك من سلامة الأبياتِ

ثم قال :

يدخل في المديد والخفيفِ والرَمل المجزوء والمحذُوفِ
ويدخل المجتثّ أيضاً أجمعه ولا يكون في سوى ذي الأربعه

وأختصر في ثمانية أبيات (باب الزيادات على الأجزاء) فقال[٤٩] :

ثم الزيادات على الأجــزاء موجودة تُعــرف بالأسماءِ
وإنما تكون في الغايــاتِ تُزاد في أواخــر الأبــياتِ

وذكر باب نقصان الأجزاء في ستة أبيات منها قوله[٥٠] :

فإن رأيتَ الجزء لم يذهب معـا بالأنتقاص فهو واف فأسمعـا
وإن يكُن أذهبه النُّقصـــانُ فأفهم ففي قولي لك البيـانُ
فذلك المجزوء في النِّصفيـــن إذا أنتقصتَ منهما جُزأيـــنِ
والبيتُ إن نقصتَ منه شطرَهُ فذلك المشطور فأفهم أمـرهُ
وإن نقصتَ منه بعد الشَّطـرِ جُزءاً صحيحاً من أخير الصدر
وكان ما يبقى على جُزأيـنِ فذلك المنهوك غيرَ ميْـــنِ

ثم أورد صفة الدوائر وصورها وجعلها في خمس دوائر ونظمها في ثلاثـة وخمسين بيتاً منها قوله[٥١] :

دوائرٌ تعيا على ذِهـن الحذق خمس عليهن الخطوط والحَلَـقْ
فما لها مـــن الخطوط البائنة دلائل على الحـروف الساكنـهْ
والحلقـــات المتجوِّفـاتِ علامـــةٌ للمتحرِّكـــاتِ
والنقط التي على الخطـــوط علامـــةٌ تعَـدّ للسقـــوط
والحلق التـي عليها ينُقَـطُ تسكن أحيانـاً وحينـاً تسقُـطُ
والنقط التـي بأجواف الحلقْ لمبتدأ الشطـور منها يختَـرقْ
فأنظر تجد من تحتها أسماءها مكتوبةً قـد وُضعـت إزاءهـا
والنقطـــتان موضـع التعاقُب ومثـــل ذاك موضـع التراقـب
وهذه صـورةُ كـل واحـــدة منهـا ومعنى فسْرها على حـده
أولهـــا دائـرة الطويـــل وهـي ثمـانٍ لذوي التفضيـــل
مقسّم الشطر علـى أربـــاعِ بين خماسـي إلـــى سباعـــي
حروفـه عشـرون بعد أربعه قد بيّنوا لكل حـرف موضعـه
تنفك منهـا خمسـة شُطـورُ يفصلهـــا التفعيـــل والتقديـرُ
منها الطويل والمديد بعـــددُ ثم البسيـــط يحلمـون سـردَهُ
ثلاثة قالت عليهـــا العـربُ وأثنان صدّوا عنهمـا ونكبـــوا
وهذه صورتها كمـــا تـرى وذكرهـــا مبينـــا مفسـرًا

الدائرة الأولى[٥٣] :

دائرة المختلف مؤلفة من أربعة أجزاء سباعيين مع خماسيين .

الطويل : مبني على فعولن مفاعيلن . ثماني مرات

المديد : مبني على فاعلات فاعلن . ست مرات ، بعد الحذف .

البسيط : مبني على مستفعلن فاعلن . ثماني مرات .

صورة الدائرة الأولى :

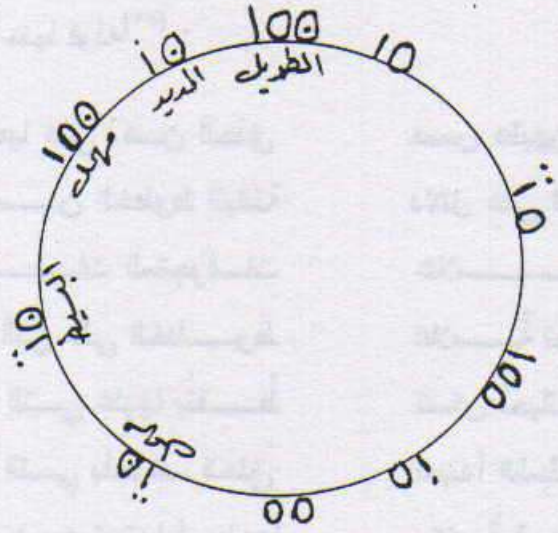

وهذه الثانية المخصوصه ... بالسبب الثقيل والمنقوصه

أجزاؤها ثلاثة مسبَعة ... قد كرهوا ان يجعلوها أربعة

لأنها تخرج عن مِقدارهم ... في جُملة الموزون من أشعارهم

فهي على عشرين بعد واحدِ ... من الحروف ما بها من زائد

ينفك منها وافرٌ وكاملُ ... وثالثٌ قد حار فيه الجاهلُ

الدائرة الثانية :

وتسمى الثانية دائرة المؤتلف وفيها[٥٣] :

الوافر : مبني على مفاعلتن ست مرات . فقطفوا ضربه وعروضه

والكامل : مبني على متفاعلن ست مرات .

صورة الدائرة الثانية :

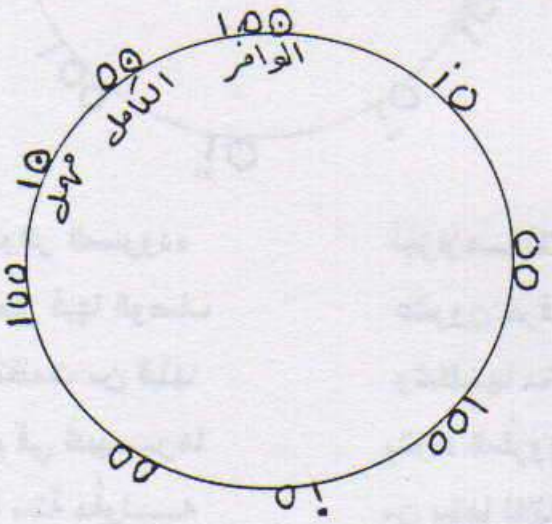

والدائرة الثالثة التي حكتْ ... في قدرها الثانية التي مضَتْ

في عدة الأجزاء والحروفِ ... وليس في الثَّقيل والخفيـــف

ينفكّ منها مثلُ ما ينفـكّ ... من تلك حقا ليس فيه شـــك

ترفل من ديباجها في حُللِ ... من هزج أو رجز أو رمـــلِ

وهذه سورتُها مبينـــــة ... بحلْيهـا ووشيها مزيَّنـــه

الدائرة الثالثة :

وتسمى الثالثة دائرة المجتلب وفيها[٥٤] :

الهزج : مبني على مفاعيلن ، بعد الحذف ، أربع مرات .

الرجز : مبني على مستفعلن ، ست مرات .

الرمل : مبني على فاعلاتن ، ست مرات .

صورة الدائرة الثالثة :

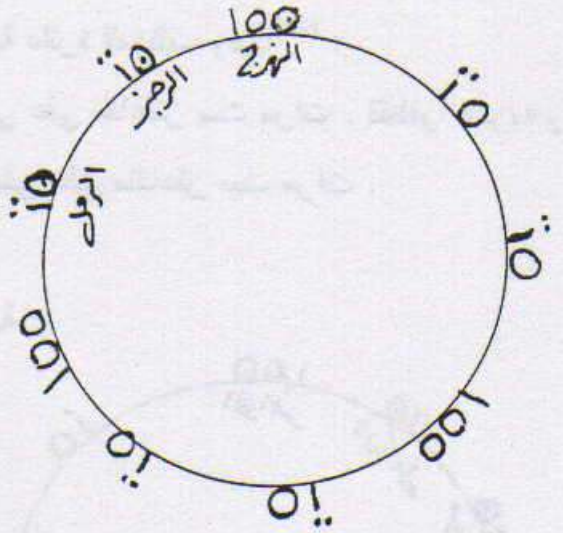

وأربع الدوائر المسروده	أجزاؤها ثلاثة مغـــدودة
عجيبة قد حار فيها الوصف	عشرون حرفاً عدّها وحرّفُ
مثل التي تقدمت من قبلها	وشكلـــها مخالف لشكلهـــا
بديعة أحكم في تدبيـــرها	بالوتد المفْروق في شطورها
ينفك منها ستة مقُولـــه	من بينها ثلاثةٌ مجْهولـــــه
وكل هذه الستة المشطوره	معروفة لأهلها مخبـــورة
أولها السّريع ثم المنســرحْ	ثم الخفيف بعده ثم وضَـحْ
وبعده مُضـــارع ومقتضـــب	شطران مجزوآن في قول العرب
وبعدها المجتث أحلى شطـــر	يوجد مجزوءاً لأهل الشعـــرِ

الدائرة الرابعة :

وتسمى الرابعة دائرة المشتبه وفيها[٥٥] :

السريع : مبني على مستفعلن مستفعلن مفعولات ، ست مرات .

المنسرح : مبني على مستفعلن مفعولات مستفعلن ، ست مرات .

الخفيف : مبني على فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، ست مرات .

المضارع : مبني على مفاعيلن فاعلاتن ، ست مرات ، فحذفوا منه جزأين فصار مربعاً .

المقتضب : مبني على مفعولات مستفعلن مستفعلن ، ست مرات ، فربعوه كما تقدم .

المجتث : مبني على فاعلاتن فاعلاتن ، ست مرات ، فربعوه كما تقدم .

صورة الدائرة الرابعة :

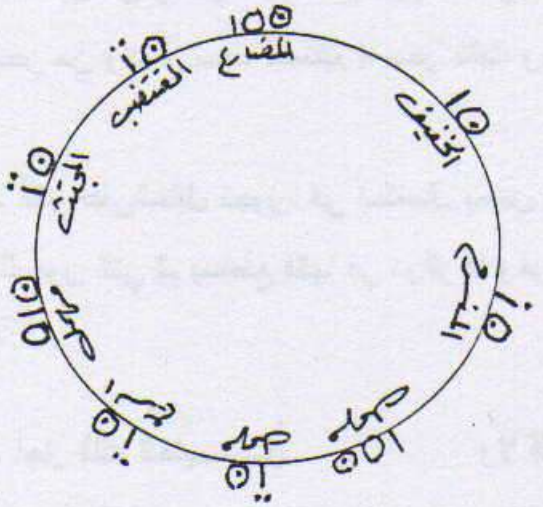

وبعدها خامسة الدَّوائـــرِ ... للمُتقارب الذي في الآخـرِ
ينفك منها شطره وشطـرُ ... لم يأتِ في الأشعار منه الذكرُ
من أقصر الأجزاء والشطورِ ... حروفه عشرون في التقدير
مؤلف الشطر على فواصـل ... مخمسات أربع قوائـــلِ

الدائرة الخامسة :

وتسمى دائرة المتفق وفيها[٥٦] :

المتقارب : مبني على فعولن ، ثماني مرات .

صورة الدائرة الخامسة :

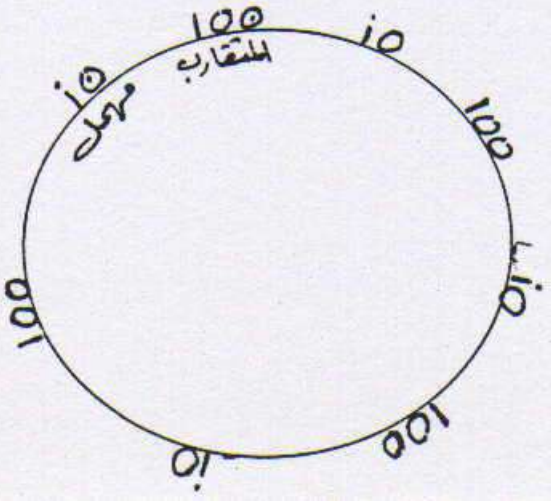

وهكذا قسم ابن عبد ربه البحور الشعرية على خمس مجموعات وسمى لكل مجموعة دائرة معتمداً لها بحراً من بحورها ، عدّه أصل الدائرة ومنه تستخرج سائر بحورها .

فدائرة المختلف أصلها البحر الطويل ، ودائرة المؤتلف أصلها الوافر ، ودائرة المجتلب أصلها الهزج ، ودائرة المشتبه أصلها السريع ، أما دائرة المتفق فأصلها المتقارب ، ولكي يستخرج ابن عبد ربه بحراً من أصل كل دائرة ، يترك ما في أول الأصل من وتد أو سبب ، فيستقيم له بحرٌ آخر . ثم يعود ليترك ما في أول هذا البحر من وتد أو سبب ليستقيم له بحرٌ ثالث وهكذا الى نهاية بحور الدائرة.

وقد أنكر على الخليل تجوزه في إستعمال بعض الأصول الوهمية غير المستعملة للبحور التي لم يستطع فكها في دوائرها وهو ما أشار اليه بقوله في الأرجوزة[٥٧] .

وقد أجاز ذلك الخليلُ ولا أقول فيه ما يقولُ

لكنه حفظ للخليل حق الريادة والسبق في هذا العلم فقال :

وليس للخليل من نظير في كل ما يأتي من الأمورِ
لكنه فيه نسيج وحده ما مثله من قبله وبعدهِ

ومهما يكن من أمر فإن "العقد الفريد" من أقدم المصادر التي عالجت هذه الدوائر وأوضحت رموزها[٥٧] .

الهوامـــش :

١ - العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي . تحقيق أحمد أميـــن وأحمـــد الزيـــن وابراهيم الأبياري . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ٥/١.

٢ - انظر العقد ٥/٤٢٤-٥١٨ .

٣ - أنظر ترجمة في تاريخ علماء الأندلس لابـــن القرضـــي تحقيـــق ابراهيـــم الابياري. بيروت ١٩٨٩ ٨٧/١ ، وجذوة المقتبس للحميدي تحقيق إبراهيـــم الأبياري ، بيروت ١٩٨٩ ، ١٦٤/١ ومطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتـــح بن خاقان ، تحقيق محمـــد علـــي شـــوابكة ، بـــيروت ١٩٨٣ ، ص٢٧٠ ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لإبن دحية ، تحقيق إبراهيـــم الأبيـــاري ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص١٤١ ، وأنظر أيضاً ابن عبد ربـــه وعقـــده للدكتـــور جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٧٩ .

٤ - ابن عبد ربه وعقده ، جبرائيل جبور ، ص٤١ .

٥ - من أهل قرطبة زاهد فاضل ورع له رحلة واسعة الى المشرق لقـــي فيـــها جماعة من المحدثين ، أخباره في تاريخ علماء الأندلـــس لابـــن القرضـــي ١٦٩/١ .

٦ - من الرواة المكثرين ، له رحلة الى المشرق في طلب العلم ، أخباره في بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي تحقيـــق ابراهيـــم الأبيـــاري بيروت ١٩٨٩ ، ١٧٣/١ .

٧ - له رحلة الى المشرق لقي فيها أحمد بن حنبل ، كان عالماً حافظاً ، أخبـــاره في جذوة المقتبس للحميدي ، ١١٧/١ .

٨ - المقتبس في أخبار بلد الأندلس لإبن حيـــان القرطبـــي ، ج٥ ، نشـــره ، ب. شالميتا و ن. كورنيطي و م. صبح مدريد ١٩٧٩ ، ٤٠/٥ .

٩ - يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر للثعالبي تحقيق محمد محيي الدين عبـــد الحميد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ٧٤/٢ .

١٠ - الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، دار المعارف مصر ١٩٨٥ ، ص٢٢٧ .

١١ - جذوة المقتبس للحميدي ، ١٦٧/١ .

١٢ - المصدر نفسه ١٦٤/١ .

١٣ - العقد الفريد ¼ .

١٤ - مطمح الأنفس ص٢٧٠ .

١٥ - ديوان ابن عبد ربه تحقيق د. محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩ ، ص١٦٦ .

١٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لإبن خلكان تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ ، ١١٣/١.

١٧ - العقد الفريد ٤٤٢/٥ .

١٨ - فهرسة ابن خير الاشبيلي . تحقيق ابراهيم الابياري ، بيروت ١٩٨٩ ، ٤٣١/٢.

١٩ - العقد الفريد ، ٤٢٤/٥ .

٢٠ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ابن بسام الشنتريني ، تحقيق د. إحسان عباس ، ليبيا ، ١٩٧٥ ، ٢/٢/١ .

٢١ - فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي . تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٤ ، ١٤٩/٢ .

٢٢ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص٢٢٤ .

٢٣ - العقد الفريد ، ٤٢٩/٥-٤٣٠ .

٢٤ - المصدر نفسه ، ٤٢٤/٥ .

٢٥ - المصدر نفسه ، ٤٢٥/٥ .

٢٦ - المصدر نفسه ، ٤٢٥/٥ .

٢٧ - المصدر نفسه ، ٤٢٦/٥ .